

السّماتُ الأساسيّةُ للحركة القوميّة العربيّة

في ظلِّ تحالفِ القومِ البرجوازيةِ الوطنيّةِ والصّغيرةِ في سورية
(١٩٤٩ - ١٩٦٣)

د. نجاح محمد
جامعة دمشق

القومية العربية كحركة وتطور تاريخي:

القومية العربية كحدث اجتماعي وكرابطة تاريخية داخل التاريخ لا بد وان تخضع ، بالضرورة ، لقوانين التاريخ ولحركته التطورية مما يعني تغيرها وتبدلها المستمرين ، شكلا ومضمونا ، على مر المراحل التاريخية التي تمر بها .

في حديثنا عن البدايات التاريخية للقومية العربية علينا ان نميز بين بدايتها كواقع اجتماعي عربي ، وبدايتها كفكرة قومية ، وبدايتها كحركة سياسة . بدايتها كواقع اجتماعي عربي مرتبطة ببداية وجود الامة العربية والتي ترتبط ، بدورها ، ببداية وجود التجمع البشري العربي الاول منذ الاف السنين قبل الميلاد ، وبدايتها كفكرة كانت مع بداية هذا الواقع الذي التحمت معه بعلاقة جدلية تبادلية وتطورت بتطوره ، واسهمت في عكسه والتعبير عنه ، كما ساهمت في تغييره وتحويله ، وكل هذا عبر مسيرة التاريخ العربي الطويلة التي شهد فيها اشكالا كثيرة من اشكال الوحدة الاجتماعية والفكرية والحضارية عند العرب .

تطورت الفكرة القومية خلال هذه المسيرة منتقلة من مرحلة اللاشعور الى مرحلة الوعي العادي لرابطة الانتماء العروبية ، الى مرحلة الوعي المعرفي لهذه العروبة ، ثم الى مرحلة الوعي الايديولوجي الذي هو قمة الوعي واساسه المحرك الدافع للفعل والنضال . ورسالة الاسلام العروبية في القرن السابع الميلادي كانت مؤشرا وصول العرب الى مرحلة الوعي الاخيرة هذه ، فكما كان الاسلام بمضمونه الحضاري استمرارا لحضارة العرب القدماء منذ الاف السنين فقد كان بمضمونه القومي العربي الاجتماعي التحريري الموحد مؤشرا الى وصول الواقع الاجتماعي المادي - الروحي العربي الى مرحلة الامة العربية ، اولا ، وتعبيرا عن وصول الفكرة القومية الى مرحلة الوعي

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

الايدولوجي ، ثانيا ، وبداية للقومية العربية كحركة سياسية هادفة لتوحيد العرب في ظل دولة عربية واحدة ، ثالثا . وكما كانت توحيدية الاسلام الدينية استمرارا للتوحيدية الدينية العربية القديمة ، التي نادى بها كل الانبياء العرب قبل الرسول العربي محمد ، فقد كان الاسلام ، بالتالي ، استمرارا للشكل الديني للفكرة القومية والذي كانت تعبر عنه هذه التوحيدية الدينية العربية القديمة بمختلف مسمياتها: الحنيفية والموسوية والمسيحية وغيرها .

وهكذا كان القرن السابع الميلادي بداية للقومية العربية كحركة سياسية ذات مضمون وحدوي عروبي محرر موحد وشكل ديني اسلامي . كانت الرابطة العروبية عند بداية هذه الحركة هي نفسها الرابطة الاسلامية فكانت صفة المسلمين ، استنادا للقرآن الكريم (١) ، تضم كل المؤمنين بالرسالات السماوية الاخرى، وفي الجزيرة العربية كانوا كلهم من العرب ، وبهذا فقد كان للعروبة نفس المحتوى البشري الذي كان للاسلام .

بقي هذا التطابق بين الرابطتين مع بقاء هذا المحتوى وبقاء انسجام الشكل الاسلامي للحركة القومية العربية مع مضمونها القومي العربي ، وانتهى بنهاية انسجامه او بداية تناقضه معه . حدث هذا التناقض نتيجة لازدياد وجود ونفوذ العناصر المسلمة غير العربية وخاصة الشعوبية ، وقيامها ، بقصد او عن غير قصد ، بضرب وجود ونفوذ العناصر العربية المسلمة وغير المسلمة ، مما ادى الى تعميق التناقضات شيئا فشيئا في الواقع العربي وعلى الساحة السياسية ما بين الرابطة الاسلامية ، التي تغير مدلولها وضاق لينحصر في اطار المسلمين ممن امن بالرسول العربي محمد فقط ، وليضم كل المسلمين من مختلف القوميات من عرب وغيرهم ، وبين الرابطة العروبية التي ضمت كل العرب بكافة انتماءاتهم الدينية . وصلت هذه التناقضات الى نقطة اللا لقاء نتيجة لازدياد دور الشعوبية المستترة بستار الاسلام في تهديم الدولة العربية الاسلامية ثم نتيجة لقيام دولة اسلامية باحتلال الوطن العربي ، فكان الاحتلال الفارسي ثم الاحتلال العثماني التركي الذي لم يكتف بالاحتلال العسكري وانما مارس ابشع اساليب الاستعمار الاجنبي من تجزئة وتفرقة واستغلال ، وتعميق لكل مظاهر الفقر والتخلف .

كانت اواخر القرن التاسع عشر فترة وضوح التناقض بين الرابطة العثمانية التي تتقنع باللباس الاسلامي والرابطة العروبية نتيجة لقيام السلطات التركية بالتفريط بالارض العربية وبالتساهل مع اعدائها وعلى رأسهم الصهيونية (٢) ، وتبنيها سياسة التتريك ومحاولة ضرب الذات القومية العربية ، فكانت ، بالتالي ، نقطة الفصل بين الرابطتين لصالح الرابطة العروبية . ونقطة الفصل هذه كانت بدورها بداية الشكل

العروبي للحركة القومية العربية ، الشكل الذي جاء أكثر انسجاما مع مضمونها القومي الذي يضع الانتماء للعروبة فوق كل انتماء آخر ويعتبر العروبة بالنسبة للعرب الام التي تنتسب اليها كل الاديان ، فالعرب كما قال الامير فيصل في احدى خطبه في عام ١٩١٨ : « عرب قبل موسى وعيسى ومحمد » (٢) .

بداية القومية العربية اذا حركة سياسية وبايدولوجية عروبية، شكلا ومضمونا، كانت في اواخر القرن التاسع عشر وبهدف تحرير الوطن العربي من الحكم العثماني التركي واعادة توحيدده في ظل دولة عربية واحدة . أما بالنسبة للايدولوجية القومية العربية ، فما هي الا تعبير عن مضمون القومية العربية وشكلها في مرحلة تاريخية من تطورها. من هنا فانه لا يجوز حصر القومية ضمن اطار الايدولوجية من باب عدم جوازية حصر الكل في الجزء ، وبالتالي ، فلا يجوز اعتبار القومية العربية ، مثلها مثل اية قومية ، ايدولوجية طبقية معينة ومطلقة(٤) كما هي الحال عند النظرية الستالينية ، فالايديولوجية القومية مختلفة باختلاف الواقع الاجتماعي وباختلاف المرحلة التاريخية التي يمر بها هذا الواقع .

ينتج من ذلك ان اختلاف الواقع القومي الاجتماعي العربي ما بين مرحلة واخرى هو عامل اساسي هام في اختلاف الايدولوجية القومية العربية ، أي في اختلاف المضامين والاشكال الفكرية والسياسية والاجتماعية والتنظيمية للحركة القومية العربية ما بين هذه المرحلة والاخرى . يقود هذا الى ان المعيار الاساسي لتحديد المراحل التاريخية الرئيسية لتطور الحركة القومية العربية في بلد ما هو طبيعة تطور البنية الاجتماعية المهمة على الواقع القومي والاجتماعي والسياسي في هذا البلد . انطلاقا من ذلك نستطيع القول بان الحركة القومية العربية في سورية وحتى في الوطن العربي عموما قد مرت في خمس مراحل رئيسية في تطورها في الفترة التاريخية الممتدة منذ بداياتها ، كحركة سياسية عروبية في أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى يومنا هذا. والمراحل الخمس بالنسبة للاحداث التاريخية في سورية هي الاتية :

المرحلة الاولى : مرحلة هيمنة الاقطاع ، وامتدت منذ اواخر القرن التاسع عشر وحتى قيام الثورة العربية الكبرى في حزيران ١٩١٦ والتخلص من الاحتلال التركي .

المرحلة الثانية : مرحلة هيمنة البرجوازية الكبيرة ، وامتدت من الثورة العربية حتى الاحتلال الفرنسي لسورية عام ١٩٢٠ .

المرحلة الثالثة : مرحلة هيمنة البرجوازية الوطنية ، وامتدت من الاحتلال الفرنسي حتى الانقلاب العسكري الاول عام ١٩٤٩ .

المرحلة الرابعة : مرحلة هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة، امتدت من انقلاب الزعيم وحتى ثورة اذار ١٩٦٣ .

المرحلة الخامسة : مرحلة هيمنة تحالف الطبقات والفئات الكادحة (ب) من ثورة اذار ١٩٦٣ وحتى يومنا هذا .



قبل الخوض في صميم موضوع البحث « السمات الاساسية للحركة القومية العربية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة (١٩٤٩ - ١٩٦٣) »، اي في مرحلتها التاريخية التطورية الرابعة ، نجد من الضروري اعطاء لمحة موجزة عن صورة الواقع الاجتماعي في سورية في المرحلة التاريخية السابقة ، اي في ظل الاستعمار الفرنسي ، لتوصل بعد ذلك الى فهم أفضل للحركة القومية العربية في ظل هيمنة التحالف المذكور .

ان الاستفادة من سورية كم منطقة سياسية استراتيجية هامة في المشرق العربي وفي شرقي المتوسط كنافذة على اسيا لم تكن كافية لارضاء فرنسا التي ارادت تحويل سورية أيضا الى مصدر كبير لزيادة اغناء دولتها وشركاتها الرأسمالية . هذا ما يفسر السياسة الاقتصادية التي انتهجتها سلطات الاحتلال الفرنسي في سورية والتي استطاعت من خلالها التأثير الكبير على العمليات الاقتصادية الجارية فيها (٥) والتصرف بها جميعا بما يتناسب ومصلحة فرنسا وشركاتها فقط ، كرفع التعرفة الجمركية متى ارادت وتنظيم الاتفاقيات بحيث تعرقل عملية تصدير الصناعة المحلية ، فتوقفت كثير من الصناعات الوطنية والحرفية والمنزلية والمانيفاتورية (٦) . وعرقلت السياسة الاقتصادية الفرنسية نمو رؤوس الاموال الوطنية ، وبالتالي قيام صناعة محلية تنهض على اساس وجود المعامل والمصانع في سورية (٧) ، مما قاد الى ضعف البرجوازية الوطنية وعدم تطورها ، وقاد هذه البرجوازية الى الهرب من توظيف أموالها في الصناعات ودفع بعضها الى المراهبة او الهجرة او الى شراء الارضي . ووضع البرجوازية هذا قادها الى النعمة اكثر فأكثر ضد المستعمر لفرنسي . أما العمال فقد زاد تواجدهم نسبيا بالنسبة للسابق .

أما في الريف كانت خطة فرنسا تقضي بتحويله الى واحد من أكبر مصادر تزويدها بالمواد الزراعية ، فتحالفت مع الاقطاع وشجعتة وعملت على ادخاله الى ميدان التبادل التجاري لتزيد من سيطرتها عليه فيكون وسيطها لتحقيق خططها هذه ، خاصة وانها لم تكن ترغب في استثمار رؤوس الاموال الفرنسية في الزراعة نتيجة لتخوفها الدائم

د. نجاح محمد

من التحركات الوطنية المستمرة ، وبالتالي ، لخوفها من ان تطرد من البلاد(٨) ما بين يوم وآخر . ما تقدم يفسر تلك الاجراءات التي قامت بها سلطات الاحتلال كتوزيع الاراضي المشاع واراضي الدولة على الاقطاعيين والسماح لهم وللمرابين بشراء اراضي الاوقاف وغيرها لتزيد من مساحة الاراضي الزراعية في أيديهم ، كما يفسر غض النظر عن عملية تجريد الفلاحين من اراضيهم من قبل رجال الاقطاع الخ. كل ذلك قاد الى زيادة مساحة الاراضي الزراعية الكبيرة التي تملكها بعض الافراد(٩) في حين نقصت مساحة الاراضي الزراعية التي كان الفلاحون يمتلكونها(١٠) ، مما اضطر كثيرا منهم الى العمل كاجراء زراعيين . ان سياسة فرنسا هذه في تعزيز العلاقات القطاعية وسياستها الاستعمارية الاستغلالية عموما قد أدت الى ازدياد حالة الفلاح السوري بؤسا واستغلالا وتخلفا .

وبشكل عام ، تشكلت البنية الاجتماعية لسورية في نهاية فترة الاحتلال الفرنسي من الفئات الاجتماعية الرئيسية الآتية :

١ - **طبقة الاقطاع** التي تحالفت مع سلطات الاحتلال وتحول بعضها وبدعم هذه السلطات الى برجوازية زراعية تابعة(١١) .

٢ - **طبقة البرجوازية الكبيرة** ، وأبرزها : أ - الكومبرادور والبرجوازية الزراعية ، ودعمتهما الامبريالية الفرنسية فوضعتا نفسيهما بخدمتها(١٢) ، ب - البرجوازية الصناعية : وقد نمت قليلا بالنسبة للسابق الا أنها بقيت ضعيفة للأسباب التي ذكرناها ، وكانت والبرجوازية التجارية التي نزعت منها مراكزها(١٣) معبأة بمشاعر النقمة ضد المستعمر الفرنسي المحتل للوطن وبمطامح التطلع الى استلام السلطة بعد اجلائه عنه ، مما يفسر وجودهما في صفوف الحركة الوطنية والقومية . أما خروج برجوازية الكومبرادور من قيادة الحركة القومية العربية في هذه المرحلة ، فقد كان بسبب عمالتها وموقفها السلبي من النضال الوطني والقومي ضد الاستعمار الفرنسي .

٣ - **الجماهير الكادحة** ، وتشمل الفئات الاجتماعية التي لا تملك سوى جهدها المادي والعقلي ، وجهدها الفكري ، كالعامل وقسم من المثقفين وصغار الفلاحين والموظفين وغيرهم ، الى جانب الفئات الاجتماعية المالكة لرأس مال صغير ، أي البرجوازية الصغيرة ، كالحرفيين وأصحاب المهن الحرة وغيرهم .

فالبنية الاجتماعية للحركة الوطنية والقومية كانت في غالبيتها من صفوف هذه الفئات الأخيرة ، أي فئات الجماهير الكادحة وخاصة المثقفين وصغار الفلاحين . ان

الشعور الوطني في ظروف الاحتلال الاجنبي ، شعور الارتباط بالارض ، وبالذات ، وجودا وثقافة وتاريخا ، أي شعور الارتباط بالذات قوميا ، كان وما زال عند الجماهير السورية فوق كل شعور آخر ، كما كان الارتباط بالارض وما زال فوق كل ارتباط.

احتل الاستعمار الفرنسي الارض السورية وتقاسمها مع حلفائه المستعمرين الاتراك والانكليز والصهاينة وجزاها مصطنعا حدودا جديدة لم تكن موجودة . ولكي يمنع اية وحدة وطنية وقومية ، من شأنها ان تهدد وجوده وسياسته في سورية ، لجأ الى بث التفرقة ، الدينية والمذهبية والاقليمية وغيرها ، ومحاولة تميقها بكل انواعها في صفوف المجتمع السوري . ولا تمام ما بداه الاستعمار التركي من ضرب الذات القومية في الصميم ، عمد الى محاولة طمس التراث العربي القومي وطمس مضامينه التقدمية وخاصة ما تعلق منها بنقاط الوحدة التي كانت تجمع ما بين العرب ، ومحاولة تفويض كل دعائم الثقافة القومية (١٤) وتشويه التاريخ العربي الحضاري بما يبرز نقاط الاختلاف بين العرب ويخدم ، بالتالي ، سياسة التجزئة والتفرقة والتي تحقق بالطبع ، اهداف المصالح الاستعمارية عموما في الوطن العربي .

كان النضال الوطني والقومي في سورية رافضا لوجود الاستعمار الفرنسي بكل وجوهه ، السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان ، قبل كل شيء ، متمسكا بالارض والاستقلال والذات القومية ولم يتوقف حتى استرجعت الارض وكان الاستقلال . وبالرغم من وجود قيادات فلاحية بطولية كبيرة لهذا النضال فقد استطاعت البرجوازية الوطنية الهيمنة على شؤون وقادته منذ الثورة السورية الكبرى ، كما استطاعت الهيمنة على السلطة وامور الحكم في هذه المرحلة بسبب استنفاد الامكانات المادية للقيادة الفلاحية ، ونظرا لامكاناتها المادية ولقوة نفوذها وحشد قواها السياسية وتنظيمها في كتل سياسي واحد اخذ اسم « الكتلة الوطنية » استلم شؤون النضال الوطني وبعض امور الحكم في سورية منذ عام ١٩٢٨ .

تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصفيرة :

ان نجاح الحركة الوطنية والقومية في ظل هيمنة البرجوازية الوطنية في الحصول على استقلال البلاد واجلاء جيوش الاستعمار الفرنسي منها في عام ١٩٤٦ وفي المساهمة في خلق الجامعة العربية كان انجازا قوميا هاما ، لكن فشل هذه القيادة ، التي استلمت امور الحكم في سورية كليا في الفترة التي أعقبت الاستقلال ، والذي ظهر في معالجتها لعدة قضايا وطنية وقومية اساسية ، قدغطى على نجاحها هذا وجعله منقوصا ، واهم هذه القضايا كانت قضية وحدة سورية بحدودها الطبيعية التي كانت لها قبل الاحتلال الفرنسي ، وقضية لواء اسكندرون ، وقضية فلسطين ، ثم الهزيمة امام

اسرائيل في الحرب الاولى في ايار ١٩٤٨ . ولم تكن ظاهرة استلام الجيش لامور السلطة المدنية سوى نتيجة طبيعية لفشل القيادة البرجوازية الوطنية هذا ، ولفشلها حتى في تسيير امور الحكم . ما تقدم ، بالاضافة الى وضوح عجز هذه البرجوازية عن القيام بمهام الثورة الصناعية والقومية والديموقراطية نتيجة لظروف نشأتها ولضعفها ولو وضوح عجزها عن الاستقلال عن الرأسمالية العالمية ، ادى الى ضعف تأثيرها ونفوذها في سورية شيئا فشيئا سواء داخل الحركة القومية العربية أو خارجها .

زاد في ضعف البرجوازية الوطنية هذا عدم الاستقرار الذي تعرضت اليه البلاد نتيجة للاقطاعات العسكرية من جهة ، ونتيجة ممارستها لعبة المحاور العربية من جهة اخرى ، مما ادى الى انقسامها وتشتت قواها ، فقسم منها وغالبية من برجوازية حلب تبني الدعوة الى ارتباط سورية بالمحور العراقي - الاردني الهاشمي ، وقسم اخر وغالبية من برجوازية دمشق تبني الدعوة الى ارتباط سورية بالمحور السعودي - المصري . وقد وصل الصراع في اوساط الحزبين اللذين كانا يمثلان البرجوازية السورية عموما آنذاك ، وهما « الحزب الوطني » و « حزب الشعب » (١٥) ، وفي اوساط الحركة القومية العربية بشكل عام ، حدا كبيرا بسبب لعبة المحاور العربية هذه ، التي سببت انقسام الحركة الى ثلاثة اتجاهات رئيسية : الاول وعلى رأسه حزب « الشعب » (١٦) تبني الدعوة الى انضمام سورية الى المحور العراقي - الاردني الهاشمي ، والثاني وعلى رأسه « الحزب الوطني » (١٧) تبني الدعوة الى انضمام سورية الى المحور السعودي - المصري ، والثالث ، وعلى رأسه « حزب البعث العربي » ، دعا الى الوحدة العربية بشموليتها بغض النظر عن جميع المحاور ، وضرورة معالجة اية مسألة مطروحة على الساحة السياسية الداخلية والعربية والدولية من خلال منعكساتها على القضية الوطنية والقومية بشكل عام . وبناء عليه هاجم هذا الاتجاه لعبة المحاور واعتبرها لعبة استعمارية لمرقلة الوحدة العربية الحقيقية والاساءة اليها (١٨) .

ان خضوع البرجوازية الوطنية السورية للعبة المحاور العربية زاد في ضعف تأثيرها ونفوذها في الحركة القومية العربية وفي سورية بشكل عام . ومقابل هذا الضعف توضح ازدياد تأثير ونفوذ وجود الفصائل اليسارية المؤلفة من الفئات الكادحة في اوساط العمال وصغار الفلاحين والبرجوازية الصغيرة ، وقد مثلها حزبا « البعث العربي » و « العربي الاشتراكي » اللذان ما لبثا ان اندمجا ليشكلا حزب « البعث العربي الاشتراكي » في اواخر عام ١٩٥٢ ، وكان نفوذ الفصائل اليسارية هذه واضحا في الجيش ايضا ومن خلال الضباط البعثيين بشكل خاص .

اما تأثير البرجوازية الصغيرة عموما فقد كان واضحا في المجتمع السوري ككل ،

وذلك بحكم تواجدها الواسع فيه نتيجة لضعف الاقتصاد الرأسمالي ونتيجة لهيمنة الاقتصاد الصناعي الصغير والملكية الصغيرة في سورية .

ادركت البرجوازية السورية الوطنية هذا الواقع العام ومدى تأثيره على الاحداث، وادركت أن ضعفها وفشلها المذكور في المرحلة السابقة لا يخولانها القيام وحدها ، بعد الان ، بقيادة الحركة ، ولا بالوصول الى الاستقرار الضروري لصيانة رأس مالها وتحركه ، ولا بتسيير امور الحكم في البلاد ولا بالقضاء على حكم الشيشكلي الدكتاتوري الذي توضحت معالم وجهه المتناقض مع مصالحها فتمرد على طلباتها بعد فترة، وادركت أيضا ان تحالفها مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور غير قادر على القيام بهذه المهام لان تأثر هاتين الفئتين كان ضعيفا ومحدودا جدا ، سواء داخل الحركة أم خارجها ، وذلك لضعف تواجدهما ولوضوح عمالتهما لسلطات الاحتلال الفرنسي ولترجع تأثير فكرهما اليميني مقابل تصاعد تأثير الفكر والاتجاه اليساري عند الجماهير السورية بشكل عام وعند جماهير الحركة القومية العربية بشكل خاص . ادراك البرجوازية الوطنية هذا دفعها الى التوجه نحو البرجوازية الصغيرة للتحالف معها ، سواء داخل الحركة أم خارجها ، وفي نيتها استخدام هذا التحالف لخدمة أهدافها ومصالحها بالدرجة الاولى ، هذا التحالف لم يعن تخلي البرجوازية الوطنية عن تعاملها وتعاونها مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور اذ استمرت بالتمسك به بغاية تنسيق جهودها معها ومع الفصائل اليمينية في البرجوازية الصغيرة من اجل كبس تصاعد الاتجاه اليساري في سورية بشكل عام وفي حركتها القومية بشكل خاص . ولا شك ان هذا الكبح كان من الاهداف الرئيسية التي كانت وراء تحالف قسم من عناصر البرجوازية الوطنية مع قيادة « حزب البعث » آنذاك ، حيث كان في نيتها ان تجعل من هذا التحالف لجاما للاندفاع القومي الاشتراكي لجماهير هذا الحزب . ولم يكن « التجمع القومي » الذي سيطر على امور الحكم منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٥٨ الا تعبيرا عن هذا التحالف ..

السمات الاساسية للحركة القومية العربية (١٩٤٩ - ١٩٦٣) .

١ - تصاعد الاتجاه اليساري حتى قبيل قيام الوحدة السورية - المصرية .

١ - الضغط الاستعماري ورد الفعل الوطني والقومي عند الجماهير السورية:

ان الشعور بضرورة وحدة النضال ضد الحكم الدكتاتوري قد ساهم في توحيد القوى الاجتماعية للحركة القومية العربية بمختلف اتجاهاتها الفكرية والسياسية ، وهذا ما يفسر تواجدها جميعا في تنظيم « التجمع الوطني » الذي تشكل في اواخر حكم الشيشكلي والذي ضم ممثلين عن حزب « البعث » و « الحزب الوطني » وحزب

« الشعب » وبعض المستقلين . مثل « البعث » الاتجاه اليساري في حين كان حزب « الشعب » يمثل الاتجاه التوفيقى و «الحزب الوطنى» يمثل الاتجاه اليميني ، لا شك ان وحدة نضال التنظيمات السياسية للقومية العربية في سورية ضد حكم الشيشكلي كانت سبب نجاحها في اسقاطه في شباط ١٩٥٤ ، لكن الدور الاكبر بهذا النجاح كان لحزب « البعث » .

عكس هذا التجمع ، من جملة ما عكس ، تحالف القوى الوطنية والقومية المنظمة وتحالف القوى البرجوازية، وان نهايته بانهياء وسقوط الدكتاتورية لم تكن نهاية هذا التحالف ، فبقي مستمرا ، وساهم استمراره في تأزم الصراع داخل الحركة القومية وفي الانشقاقات التي تعرضت لها بعض تنظيماتها نتيجة رفض قسم من قواعدها وقلة من قياداتها استمرارها فيه . من المؤكد من أهم الأسباب لاستمرار هذا التحالف الذي هيمن على الحكم باسم جديد هو « التجمع القومى » كان ادراكه غالبية قياديين وجماهير اطرافه لمدى الاخطار التي كانت تهدد سورية في تلك الفترة بسبب تصاعد الضغط الاستعماري الغربي عليها لجرحها الى مشاريعه والانضمام الى احلافه ، وادراكها ، بالتالى ، لضرورة الوحدة الوطنية للتصدي لهذه الاخطار . ولم تكن هذه الوحدة ، سواء داخل الحركة ام خارجها ، النتيجة الهامة الوحيدة لتصاعد الضغط الاستعماري على سورية ، فلقد كان هناك نتائج هامة اخرى صبغت الحركة القومية العربية بصفتها في هذه المرحلة ، وسنكتفى بتعداد أبرزها :

١ - تصاعد موجة العداء ل « الغرب » : أصبح موقف الرفض او الموافقة على ارتباط سورية ب « الغرب » ، تحت اية صيغة كانت ، المعيار الاساسى لليسار واليمين في هذه المرحلة سواء داخل الحركة او خارجها ، وادى بروز حزب « الشعب » على انه من مؤيدي التحالف مع « الغرب » ، من جهة (١٩) ، وبروز موقف « الحزب الوطنى » ، بعد انشقاقاته الداخلية ، ضد هذا التحالف ، من جهة اخرى (٢٠) ، الى تبادل تمثيل الاتجاهين اليميني والتوفيقى في الحركة القومية بين هذين الحزبين في الفترة الاخيرة من هذه المرحلة فقد اصبح حزب « الشعب » هو الذي يمثل اليمين و « الحزب الوطنى » يمثل التوفيقية ، بعد ان كان العكس في بداية المرحلة . اما « البعث » الراضى لاي تحالف مع « الغرب » فقد بقي الممثل الاساسى لليسار القومى العربى .

ب - تأجج الشعور القومى عند الجماهير السورية : توافقت الضغط الاستعماري على سورية مع بروز نظام عبد الناصر كنظام عربى معاد للاستعمار نتيجة لتصديده للاستعمار الانكليزي وتأييمه لقناة السويس وصموده امام العدوان الثلاثى الانكليزي - الفرنسى - الاسرائيلى على مصر عام ١٩٥٦ . وقفت سورية الى جانب مصر في هذه

الحرب ، ثم وقف عبد الناصر الى جانب سورية اثناء معركتها ضد « حلف بغداد » ومشروع ايزنهاور واثناء التهديدات التركية لها ، والتي كانت فصلا من فصول الضغط الاستعماري عليها . كل ذلك كان له اكبر الاثر في تأجيج الشعور القومي عند الجماهير السورية ، من جهة ، وفي توجيهها نحو مصر وزعامة عبد الناصر للامة العربية من جهة اخرى . ولقد كان لهذا التوجه اكبر الاثر في قيام الوحدة السورية - المصرية في عام ١٩٥٨ ، حيث « وصلت موجته الى درجة لم يكن ليجرؤ احد على معارضتها والوقوف في وجهها » (٢١) . مما دفع اليمين والقوى الانفصالية الى ركوبها والتستر بها انتظارا للحظة المناسبة لضربها . من هنا جاء اشتراك البرجوازية الوطنية السورية في صنع وحدة ١٩٥٨ (٢٢) . وقامت قواعد حزب « البعث » وقيادة « قيادة » حركة القوميين العرب « بدور فعال في توجيه هذا الشعور نحو الوحدة مع مصر ونحو زعامة عبد الناصر .

ج - وضوح انقسام الوطن العربي الى معسكرين : المعسكر التقدمي الرافض لاي تحالف مع الغرب وتحت اية صيغة كانت وعلى رأسه سورية ومصر ، والمعسكر المرتبط بالغرب والداعي للتحالف معه . ان مساهمة الرجعية العربية مع الاستعمار الغربي في الضغط على سورية لجبرها للانضمام الى « حلف بغداد » ثم الموافقة على « مشروع ايزنهاور » بحجة كاذبة هي خطر وقوعها بيد الشيوعيين (٢٣) ، كان له اكبر الاثر أيضا في توجه سورية نحو مصر وزعامة عبد الناصر . تساهلت الرجعية العربية على ما يبدو ازاء هذا التوجه انطلاقا من ايمانها بانه « أهون الشرين » ، اي انه افضل من وقوعها في ايدي تلك القوة القومية العربية المندفعة باتجاه تقدمي اشتراكي يساري والتي كانت وحدها ، اي هذه القوة ، تشكل الخطر الحقيقي على مستقبل هذه الدول الرجعية ، وتساهلت انطلاقا من قناعتها أيضا بان الاتجاه الناصري التوفيقي من شأنه ان يكبح اندفاع الاتجاه القومي اليساري وان يستقطب بعض جماهيره الواسعة فيضعفه ، وهذا ما حدث فعلا بعد قيام دولة الوحدة في سورية والحكم الناصري لها .

٢ - تصاعد الاتجاه اليساري :

في الفترة التي امتدت حتى قبيل قيام الوحدة كان الضغط الاستعماري بكل وجوهه ونتائجه المذكورة قد ادى الى تصاعد الاتجاه اليساري اكثر فاكثر في سورية نتيجة لمواقفه الوطنية الشجاعة الصامدة امام هذا الضغط وضد الغرب بكل مخططاته ومشاريعه واحلافه . وقد مثل حزب « البعث » الاتجاه اليساري القومي نتيجة لمواقفه النضالية الواضحة هذه ونتيجة لمواقفه التقدمية الاخرى من مجمل

القضايا الوطنية والقومية ، كما برز الحزب الشيوعي أيضا في هذه الفترة وزادت جماهيره .

ان ادراك اليسار عموما لضرورة تنسيق نضاله المشترك من اجل تعزيز صمود سورية امام الضغط الاستعماري عليها يفسر تحسن علاقات « البعث » مع « الحزب الشيوعي السوري » بشكل ملحوظ في هذه الفترة . كان من اهم مظاهر تصاعد الاتجاه اليساري في سورية ومن ابرز نقاط التقائه تدعيم توجه سورية نحو المعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي . ومما ساهم في هذا التوجه والى درجة كبيرة مواقف دول هذا المعسكر الى جانب سورية في معركتها ضد « حلف بغداد » و « مشروع ايزنهاور » ومن ثم دعمها لمصر في حرب السويس ولنظام عبد الناصر كحاكم عربي معاد للاستعمار كما بينا .

تصاعد الاتجاه اليساري في سورية كان على حساب الاتجاهين التوفيقي واليميني فيها وتجلى ذلك بالنسبة للحركة القومية العربية بتزايد جماهير حزب « البعث » ، وخاصة في اوساط صغار الفلاحين والمثقفين ، وتحسن وضعه التنظيمي مقابل تقلص جماهير حزبي « الشعب » و « الوطني » وانهار وضعهما التنظيمي . ان موقف هذه الاحزاب من ارتباط سورية « بالغرب » كان سببا هاما لتطور اوضاعها بهذا المنحى ولكن لم يكن السبب الوحيد ، فقد كانت هناك اسباب اخرى لعبت دورا واضحا في هذا التطور واهمها طبيعة بنيتها الاجتماعية والتنظيمية ، ففي حين كانت البنية الاجتماعية لحزب « البعث » منسجمة نسبيا ، ومؤلفة في غالبيتها من عمال وفلاحين صغار ومثقفين ، كانت البنية الاجتماعية لحزبي « الشعب » و « الوطني » مؤلفة بمالبيتها من البرجوازية الكبيرة (٢٤) والمتوسطة والصغيرة وبعض الاقطاع . وكان لعلاقات التنافس والصراع التي كانت تعيشها برجوازية سورية ، وخاصة برجوازية حلب ودمشق ، منعكساتها على تماسك بنية هذين الحزبين الاجتماعية .

اما بالنسبة للبنية التنظيمية ، فقد كان حزب « البعث » من نمط احزاب « الجماهير » (٢٥) التي تعتمد على المركزية ونظام الشعبة والتربية الحزبية والنظرية السياسية، وكان حزبا الشعب والوطني من نمط احزاب « الكادر » (٢٦) ، التي تعتمد نظام اللامركزية ونظام اللجان التي لا تنشط الا في فترة الانتخابات وتفتقر الى التربية الحزبية والاهتمام بالنظرية السياسية . ولا شك ان ازدياد اقبال جماهير صغار التلاحين والعمال على الحركة في هذه الفترة وعلى الانتساب لحزب « البعث » بالذات ، كان سببا هاما من اسباب تصاعد الاتجاه اليساري فيها ايضا .

ان ماتقدم ، سواء ما تعلق بهذا الاقبال ام بطبيعة البنية الاجتماعية والتنظيمية للاحزاب المذكورة ، ام بطبيعة تطور الاحداث في سورية وخاصة تطور ردود فعلها ضد

الغرب الاستعماري وضغوطه واحلافه ومشاريعه ، قد ادى الى فشل محاولة القيادات البرجوازية اليمينية والتوفيقية لحزبي «الشعب» و «الوطني» في كبح جماح الاندفاع اليساري عند جماهير حزب «البعث» والتي كانت احد الاهداف الرئيسية لتحالفهما مع قيادته (٢٧) . ومن الملاحظ ان الحرص على هذا التحالف من قبل قيادة البعث كان السبب الاول لقبولها ببعض التنازلات في مجال النضال الاشتراكي ، اما السبب الثاني فهو حرصها على ارضاء عبد الناصر وقيام الوحدة . مع هذا بقي الاتجاه الجماهيري القومي العربي اليساري البعثي في تصاعد مستمر طوال فترة الاحلاف والمؤامرات الغربية التي سبقت قيام الوحدة السورية - المصرية .

ان طبيعة الواقع السياسي والاجتماعي لسورية ولحركاتها القومية في هذه الفترة قد ساهمت والى درجة كبيرة في اغناء الفكر القومي العربي اليساري في سورية وجعلته اكثر وضوحا ونضجا منه في المرحلة السابقة . ظهر ذلك واضحا في فكر ومواقف «البعث» بشكل خاص ، فقد توضحت عنده قليلا معالم ارتباط النضال التحرري والنضال الوحدوي والنضال الاشتراكي . وقد تبنى البعث في بداية هذه الفترة مقولة الصراع الطبقي والنضال الاشتراكي على انه نضال الطبقات المستغلة ضد الطبقات المستغلة (٢٨) . لكنه ما لبث ان أهمل التحدث في ذلك في الفترة التي سبقت الوحدة مع مصر (٢٩) وذلك بسبب مواقف قيادته التي ذكرناها . لا شك ان مواقف قيادة البعث هذه كانت تعبيرا عن بداية هيمنة الاتجاه التوفيقى عليها مما يفسر كثيرا من المظاهر الهامة في تاريخ هذا الحزب وبرزها بداية ظهور عجز قيادته عن مواكبة اندفاع جماهيره القومي اليساري ، وبالتالي ، عن تمثيل وتمثيل امالها ومصالحها ، ولم يكن قيامها بحل الحزب في سورية الا تعبيرا ناطقا عن هذا العجز ، فالحرص على الوحدة وقيامها ، والذي هو حجة هذه القيادة في الحل ومسيرة توفيقية عبد الناصر آنذاك ، لا يكون الا بالحرص على انجازها بصيغة صحيحة تضمن وجود مضامينها القومية التقدمية الثورية وشروط استمرارها .

II - هيمنة الاتجاه التوفيقى على الحركة القومية العربية في الفترة الممتدة منذ قبيل قيام الوحدة وحتى قيام ثورة اذار ١٩٦٣ :

بالنسبة للاتجاه التوفيقى في هذه المرحلة ككل كان يمثل في بدايتها حزب الشعب نظرا لتبنيه لقضية تأميم المؤسسات الاجنبية في سورية بعد الاستقلال (٣٠) . اما وقوف «الحزب الوطني» ضد التأميم (٣١) وتحالفه مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور في بداية هذه المرحلة فقد ابرزته كممثل ، عن جدارة ، للاتجاه اليميني في الحركة . وقد ساهمت التبدلات في موقف حزبي «الشعب» و «الوطني» في الفترة التي سبقت

قيام الوحدة مع مصر ، وخاصة ما تعلق منها بموضوع ارتباط سورية مع الغرب ، في تبادل التمثيل بينهما للاتجاهين التوفيقي واليميني كما قلنا سابقا(٢٢) .

ويمكن اعتبار تنظيم حركة التحرير العربي مثالا اخر للاتجاه التوفيقي في الحركة القومية العربية في سورية في هذه المرحلة (٢٣) ، والذي كان من نمط تنظيمات الاشخاص التي تنتهي بانتهاء رئيسها ، حيث انتهى نشاطه الفعلي بعد سقوط الشيشكلي ، اي الشخصية التي كانت وراء تشكيله وتوجيهه .

اما بالنسبة لحركة « القوميون العرب » فقد كان نشاطها في سورية في بداياته ولم يكن لها ، بعد ، ذلك التواجد السياسي والجماهيري المعتبر . ونجد من الضرورة الاشارة هنا الى ان تخلي هذه « الحركة » عن تبني اسلوب العنف السياسي الى اسلوب النضال الجماهيري من اجل الوصول الى تحقيق اهدافها(٢٤) ، قد عكس احدى الملامح الهامة في تطورها في هذه الفترة ، من جهة ، وفي تطور الاتجاه الشوفياني الذي كانت تمثله داخل الحركة القومية العربية في نهاية المرحلة التاريخية السابقة عندما كانت تحت اسم « كتائب الفداء العربي » من جهة اخرى(٢٥) . وان الفكر القومي الاشتراكي الاصلاحى عند « حركة القوميون العرب »(٢٦) كان قريبا جدا من الفكر الناصري(٢٧) حتى يكاد يكون تكرارا له .

هذا التقارب الفكري كان انعكاسا لتقارب سياسي بين « حركة القوميون العرب » وبين عبد الناصر بدأ ببداية وجودها ، وتمثل بصلات قادتها الوثيقة معه مما دفعه الى الثقة بتبنيها الكاملة له ، ودفعه ، بالتالي ، الى دعمها اكثر فأكثر للاستفادة من تواجدها في سورية ومن تواجد فروع تنظيمها القومي في بعض الاقطار الاخرى ، كالاردن والعراق ولبنان ، لا شك ان تنظيم حركة القوميون العرب في سورية قد ساهم في توجيه المشاعر القومية المتأججة نحو الوحدة مع مصر ولصالح زعامة عبد الناصر للامة العربية في الفترة التي سبقت قيام الوحدة(٢٨) . وكان من الطبيعي بعد تحقيق الوحدة وعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة واستلام عبد الناصر لرئاستها ان يستمر في دعم حركة القوميون العرب سواء داخل الاقليم الشمالي ، أي سورية ، ام خارجه ، وخاصة بعد تبنيها للناصرية وبعد عزمه على طرح تنظيمها القومي كبديل لتنظيم « البعث » ، مما يفسر تساهل نظام عبد الناصر ازاء نشاطها السري بعد قيامها بحل نفسها علنا ، واستمراره في تقريب قيادتها اليه ، وابعاد العناصر البعثية عن مؤسسات الحكم وملاحقتها(٢٩) .

وانطلاقا من ايمان عبد الناصر آنذاك بمقولة الوحدة الوطنية بمفهومها البرجوازي القائم على اساس تعايش الطبقات ، قام بتشكيل الاتحاد القومي على ان يكون « اطارا

من الوحدة الوطنية يجمع الجميع» (٤٠) في تنظيم سياسي هدفه العمل على تحقيق اهداف الثورة وحمايتها (٤١) . خرج هذا التنظيم جامعا لجميع التصادمات ولجميع التناقضات على حد قول عبد الناصر نفسه (٤٢) ، فضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية ، ولكنه كان في غالبيته من العناصر القومية التوفيقية من صفوف حركة القوميين العرب وبقية الناصريين . أما قيادته فقد سيطرت عليها العناصر الرجعية اليمينية المستغلة الانتهازية (٤٣) . وباختصار فقد كان الاتحاد القومي تنظيما متناقضا اكثر منه تنظيما شعبيا عقائديا ثوريا (٤٤) . وكان هذا التنظيم بالنسبة للحكم الناصري كما كان تنظيم حركة التحرير العربي ، بالنسبة لحكم الشيكلي ، اداة طوع امره يحركها كما يريد ومتى شاء وهذا النوع من التنظيم غير قادر على استقطاب الجماهير والدفاع عن الحكم بشكل فعال لان هذا الدفاع يتطلب تنظيما سياسيا جماهيريا صحيحا ، فكان كلا التنظيمين المذكورين مفتقدا الكثير من مواصفاته الاساسية .

ادرك عبد الناصر هذا الحال بالنسبة للاتحاد القومي وادرك ان الاساس الذي بني عليه لم يكن بالاساس السليم ، فهو « شيء ضد العقل وضد الطبيعة » (٤٥) . لكن ادراك عبد الناصر اتي بعد سقوط دولة الوحدة . لقد تأخر ، ولكنه اتي .

ان غياب التنظيم السياسي الجماهيري الصحيح كان من اهم الاسباب في نجاح حركة الانفصال والقضاء على الوحدة السورية - المصرية . لقد اراد عبد الناصر ان يكون الكل في واحد (٤٦) ، والحلقات التي تشكلت حوله وكل منها يدعي انه يمثل تيارا وطنيا شجعتة على ذلك وهي التي احاطت به وعزلته عن الجماهير وحالت دون وجود تنظيمها السياسي الحقيقي (٤٧) . . . وكما أدرك عبد الناصر متأخرا اهمية هذا التنظيم ادرك ، متأخرا ايضا ، الموقع الصحيح للبرجوازية ولتحالف الاقطاع ورأس المال الذي يستطيع ، كما يقول في احدى خطبه : « ان يشكل نفسه وفقا للحاضر . . ووفقا للموقف » (٤٨) .

ان عدم ادراك عبد الناصر ، في بداية هذه المرحلة وحتى تموز ١٩٦١ ، لموقع البرجوازية الكبيرة هذا قاده الى التحالف معها ، سواء في سورية او في مصر ، وتصور انه قادر على جرها للمساهمة في عملية التنمية وفي عملية التصنيع بالذات ، فكانت هذه البرجوازية هي الطرف الوحيد المستفيد من هذا التحالف مستخدمة اياه لتوظيف الدولة في خدمة مصالحها بالذات وتنمية رأس مالها الخاص وذلك من خلال عملية تخريب مخططة للاقتصاد الوطني . أدرك عبد الناصر نتيجة ذلك خطأ تصوره « فالبرجوازية تؤيد الثورة المجيدة بالكلام وتتصرف معها عمليا ضد الخط العام للحكومة المرتبط بالتصنيع » (٤٩) . لقد وضع موقف البرجوازية هذا عبد الناصر امام

الاختيار بين مواصلة الثورة او الاستسلام لرأس المال الوطني واختار مواصلة الثورة فكانت قراراته الاشتراكية في تموز ١٩٦١ بتأميم ممتلكات هذه البرجوازية وضرب مواقعها الاقتصادية تعبيرا عن هذا الاختيار .

ولكن عبد الناصر ضرب مواقع البرجوازية الاقتصادية غافلا عن مواقعها السياسية القوية ، وتواجدها ونفوذها الواسع وخاصة في صفوف الجيش ، بالنسبة لسورية ، وذلك بعد قيام حكمه بضرب القوى اليسارية فيه ، البعثية وغيرها ، بحيث تحول الى قوة ضاربة لصالح هذه البرجوازية ولصالح تحالفها مع الاقطاع الذي وطدت تعاونها وصعدت نشاطها معه من اجل ضرب دولة الوحدة وانهاؤها .

من اهم الاسباب التي كانت وراء فشل هذه الوحدة ايضا سياسة الحكم الناصري التوفيقية سواء على المستوى العربي او على المستوى الخارجي بحيث لم يتخذ صديقا يدافع مقابل عدو يخطط ويتآمر . ولا شك بدور هذا العدو ، أي تحالف الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية ، في دعم حركة الانفصال والتخطيط لها .

ومن الاسباب الاخرى لفشل وحدة ١٩٥٨ ايضا ممارسة الحكم الناصري للاسلوب البوليسي والبيروقراطي ، خاصة في سورية (٥٠) . الى جانب السبب الاساسي وهو ضرب الاتجاه اليساري القومي كما بينا ، الذي كان من شأنه الدفاع الفعلي عنها ، خاصة وقد كان له الدور الاكبر في صنعها . وهكذا انتهت وحدة ١٩٥٨ بعد ان تركت آثارها الهامة على الحركة القومية العربية في سورية والتي كان من ابرزها تصاعد الاتجاه التوفيقى فيها مقابل تراجع الاتجاهين اليساري واليميني .

الممثل الاساسي للاتجاه القومي التوفيقى المتصاعد كان الناصرية . وعلينا ان نذكر هنا باننا نتناولها في مرحلة تحالفها مع البرجوازية الكبيرة ، اي قبل قرارات تموز ١٩٦١ الاشتراكية التي كانت نقطة انعطاف كبيرة في تاريخها نحو الاتجاه اليساري وادت الى تغير البنية الاجتماعية والفكرية لها نتيجة لاجراج البرجوازية الكبيرة من صفوفها . اما قبل هذه القرارات فقد كانت الناصرية تضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية والفكرية ولو انه كان يغلب عليها طابع البرجوازية الصغيرة ، سواء داخل تنظيمها ، حركة القوميين العرب والاتحاد القومي ، ام خارجهما . وطبيعة بنيتها الاجتماعية هذه تفسر تعايش اليمين واليسار فيها وتارجحها بينهما وتفسر غلبة الفكر والموقف التوفيقى عليها . تجلّى ذلك في تبنيها ، بشكل رئيسي ، لمقولة الوحدة الوطنية بمفهوم التعايش الطبقي وتبنيها لوحدة الصف العربي والجامعة العربية وفي نظرتها الى الوحدة العربية وقضية فلسطين ، حيث كانت عاجزة عن رؤية قضيتي

النضال الوجودي والنضال من اجل تحرير فلسطين في سياقهما التاريخي الصحيح وبمضامينهما الاجتماعية التقدمية . فقد عالجت حركة القوميين العرب قضية فلسطين ، مثلا ، كقضية مستقلة ومنفصلة عن مجمل قضايا التحرر العربي على كل المستويات الخارجية والداخلية (٥١) . ومقابل تبني الناصرية للجامعة العربية ولمقولة وحدة الصف العربي ، تبني « البعث » مقولة وحدة النضال العربي ودعا الى لقاء الحركات الوطنية الثورية في مختلف الاقطار العربية والى تشكيل مجلس نضال عربي كبديل عن الجامعة العربية (٥٢) .

الاتجاه التوفيقي ، اذا ، كان هو الاتجاه الغالب في الناصرية وفي تنظيمها : « حركة القوميين العرب » و « الاتحاد القومي » في هذه الفترة التي سبقت قرارات تموز ١٩٦١ . وباعتبار ان هذين التنظيمين كانا التنظيميين القوميين الوحيدين اللذين كانا يمارسان نشاطهما في سورية في فترة الحكم الناصري لها ، نظرا لحل التنظيمات الاخرى ، فقد استطاعا استقطاب كثير من الجماهير الوجودية اليهما وخاصة من صفوف البرجوازية الصغيرة ممن استهواها الفكر الناصري التوفيقي . هذا مما ساهم ، الى جانب السياسة الاعلامية المركزة ، في غلبة الاتجاه التوفيقي الناصري على الحركة القومية العربية في سورية في ظل دولة الوحدة ولكن هذا الاتجاه بدا بالتراجع نحو الاتجاه القومي اليساري في الفترة التي تلت قرارات تموز ١٩٦١ كما قلنا سابقا .

نهاية التحالف ونهاية المرحلة :

كان للحركة القومية العربية وسورية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبفضل الاتجاه الجماهيري القومي اليساري بالدرجة الاولى ، كثير من الانجازات القومية الهامة في هذه المرحلة ، وخاصة من حيث التصدي بنجاح لـ « الغرب » ومشاريعه واحلافه وضغوطه ومن حيث المساهمة من خلال تنظيم « التجمع القومي » ، الذي كان شكلا من اشكال هيمنة هذا التحالف على الحكم في سورية ، في انجاز مشروع الدفاع العربي المشترك والتعاون الاقتصادي ومشروع الوحدة الاقتصادية العربية . اما اهم فعل قومي فقد كان انجاز وحدة سورية مع مصر في عام ١٩٥٨ ، بغض النظر عن الصيغة الخاطئة التي تمت بها .

في فترة دولة الوحدة هذه وفي ظل الحكم الناصري لها ، وبزوال الخطرين الاساسيين اللذين كانا وراء التحالف المذكور ، خطر وقوع سورية في دائرة نفوذ الغرب واحلافه « بالنسبة » للقوى اليسارية ، وخطر سيطرة الاتجاه الاشتراكي القومي

اليساري فيها بالنسبة للقوى اليمينية ، بدأت التناقضات الداخلية في التحالف بالظهور على السطح ، وتجلت بمحاولة كل طرف من اطرافه اثارة عبد الناصر وادارته ضد الطرف الاخر بهدف كسب ثقته واقتناعه بان يكون هو وحده اداته في حكم سورية. ولا شك ان الطرف الذي نال ثقة ودعم عبد الناصر في البداية كان ، كما رأينا سابقا، طرف البرجوازية السورية التي استمرت في ركوب الموجة القومية بعد حل تنظيميها السياسيين ، الحزب الوطني وحزب الشعب ، في بداية الحكم الناصري لسورية، متقنعة بلباس الناصرية نفسها . لقد رأت هذه البرجوازية في المواقف التوفيقية للناصرية وخاصة ما تعلق منها بمقولة السلم الطبقي والوحدة الوطنية ضمانة تستطيع ان تعتمد عليها في جرها لخدمة مصالحها ونفوذها وتعزيز مواقعها السياسية . هذا يفسر تسللها في بداية فترة الحكم الناصري الى صفوف الناصرية وصفوف تنظيميها، ولا شك بمطامح البرجوازية السورية في استخدام هذا التسلل كوسيلة لتسلل اكثر اهمية ، الى الحكم والسلطة ، فلقد كانت تدرك مدى دعم الحكم الناصري لهذين التنظيمين ، وبنت على هذا الدعم والتصور امالا كبيرة سرعان ما خابت .

هذه الخيبة اتت بعد اصدار الحكم الناصري لقرارات التأميم الاشتراكية في تموز ١٩٦١ ، وبعد ما لحقها من تايد واسع من قبل التنظيمين الناصريين المذكورين . ان هذه القرارات التي وجهت ضربة كبيرة الى البرجوازية السورية الوطنية من خلال ضرب مواقعها الاقتصادية (٥٢) قد وضعت حدا لاي امل لها في امكانية تحول الناصرية في سورية لخدمة مصالحها فكان قرارها بالخروج منها ومن تنظيميها ومعاداتها والعمل على انهاء وجود حكمها في سورية . ما تقدم يفسر توجه البرجوازية الوطنية السورية الى تحالفها مع الاقطاع الذي كان ناقما على الحكم الناصري منذ قيامه باصدار قانون اصلاح الزراعي في السنة الاولى من حكمه، وذلك لتصعد نشاطها وتامرهم معه للتخلص من هذا الحكم (٥٤) وكان ان نجحت في ذلك في ايلول ١٩٦١ .

خروج البرجوازية السورية الوطنية من الناصرية الحاكمة قد عنى ، من جملة ما عنى ، خروجها من التحالف المهيمن عليها ، تحالف قوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبالتالي ، بداية النهاية بالنسبة لهذا التحالف ، اما تامرها مع الاقطاع وقوى الرجعية العربية والمحلية عموما ضد حكم الوحدة ولصالح الانفصال فقد وضعها نهائيا في صف هذه القوى الانفصالية المعادية للحركة القومية العربية وللثورة العربية الوجودية الاشتراكية الحضارية . وكانت ثورة اذار ١٩٦٣ الحدث التاريخي الهام الذي وضع ، في آن واحد ، نهاية مرحلة هيمنة التحالف المذكور على الواقع الاجتماعي والسياسي في سورية وبداية مرحلة جديدة هي المرحلة التي نعيشها ، مرحلة هيمنة تحالف « الطبقات والفئات الكادحة » حسب تعبير « البعث » وتحالف « قوى الشعب العاملة » حسب تعبير الناصرية .

الحواشي :

(١) انظر الآية ٤٦ من سورة العنكبوت « وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والها والهكم واحد ونحن له مسلمون » وانظر الآية ١٣٦ من سورة البقرة « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي من موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لاتفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » .

(٢) في الفترة الممتدة ما بين اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تمكن الاستعمار الغربي من السيطرة على غالبية مناطق الوطن العربي المنصوية تحت راية الرابطة العثمانية الاسلامية في الجزيرة العربية ومصر واغرب العربي، حيث استطاعت اكلترا فرض سيطرتها ، بأشكال مختلفة، على شواطئ الجزيرة العربية من عدن الى حضرموت والشواطئ الجنوبية الشرقية وعمان والبحرين والكويت ، واحتلت مصر في عام ١٨٨٢ . اما فرنسا فقد احتلت الجزائر في عام ١٨٣٠ وتونس في عام ١٨٨١ ومراكش في عام ١٩١١ ، واحتلت ايطاليا ليبيا (طرابلس الغرب) في عام ١٩١٢. ولم يكن الوجود العثماني التركي في الوطن العربي الا عاملا مساعدا على نجاح السيطرة الاستعمارية الغربية هذه .

اما بالنسبة للصهيونية فقد تحالفت معها سلطات الاحتلال التركي ممثلة بالسلطان عبدالحميد الذي حكم ما بين ١٨٧٦ و١٩٠٩، وذلك على عكس ما أعلنه اعلام هذه السلطات . ان الصهيونية بدأت بانشاء مستعمرات في فلسطين في عهده في عام ١٨٨٢ واستمرت بذلك منذ ذلك الحين . هذا وان جميع مستعمراتها الرئيسية قد اقامتها في فترة حكمه بالتحديد ، والسلطان عبد الحميد هو الذي قدم النيشان المجيدي للسلطنة الى زعيم الصهيونية هرتزل في عام ١٩٠١. ونذكر ، على سبيل المثال وليس الحصر ، بان منظمة الاستعمار اليهودي في فلسطين التي انشأها المليونير اليهودي روتشيلد في عام ١٨٨٢ قد أنشأت لوحدها ما بين هذا العام وعام ١٩٠٠ (٤٢) مستعمرة في فلسطين ، وفي عام ١٩٠١ عقد ، ولأول مرة في فلسطين ، جتماع المؤتمر الصهيوني العالمي ، وفي نفس العام انشئ في فلسطين الصندوق القومي اليهودي، ثم وفي عام ١٩٠٢ انشئ بنك انجلو فلسطين لذي سيطر على اقتصاديات العرب . وفي عام ١٩٠٧ انشئت مستعمرة تل ابيب .. الخ. (انظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتري عليها ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٩٨٠ - ٩٩٣) .

وهكذا فان المرحلة الاساسية من الوجود الصهيوني في فلسطين قد تمت في عهد السلطان عبدالحميد وبمباركة السلطات التركية كما تذكر كثير من المصادر وكما يؤكد الواقع التاريخي الفعلي بكل بساطة ووضوح .

(٣) من خطاب فيصل في حلب في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، انظر : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، الطبعة الثالثة ، دار الاتحاد ، بيروت ، بلا تاريخ ، ص ٢١٤ .

(٤) علي محمود العمر ، حركة التحرر العربية الى اين ؟ الطبعة الاولى ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٨٩-٨٥ .

(٤) مكرر - انظر الى الامام ، ص ٥٠ .

د. نجاح محمد

- (٥) راجع : ف.ب. فيكتوروف ، اقتصاد سورية الحديثة ، أكاديمية العلوم ، موسكو ، ترجمة هشام الدجاني ، دار البعث ، دمشق ، ١٩٧٠، ص ١٦.
- (٦) انظر ذوقان قرقوط ، تطور الحركة الوطنية في سورية ، ١٩٢٠ - ١٩٣٩ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٤٣-٤٤ .
- (٧) لم تتكون في سورية في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٢٨ - ١٩٤٥ سوى سبع شركات صناعية مساهمة برؤوس أموال مقدارها ١٩٣ مليون ل.س وأهمها : معمل الكونسروة والانسمنت في دمشق ومعمل الفزل والنسيج في حلب . ولقد رفضت السلطات الفرنسية في عام ١٩٢٩ ، مثلاً ، فكرة إقامة مصرف صناعي سوري برأسمال قدره ٥٠٠ ألف ل.س فقط ليقدم المساعدة الممكنة للمؤسسات الصناعية . انظر فيكتوروف ، المصدر السابق ، ص ١٧ .
- (٨) نفس المصدر ، ص ١٨-٢٠ .
- (٩) نفس المصدر ، ص ٢٠ ، وانظر صلاح وزان ، من التخلف الى التطور الاشتراكي في القطاع الزراعي ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص ٤٠ .
- (١٠) محمد الزعبي ، موافق حزب البعث العربي الاشتراكي من مسألة الصراع الطبقي ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٣٨ .
- (١١) انظر :
- Samir Amin, *La Nation Arabe*, ed. de Minuit, Paris 1976, p.39.
- Ibid, p. 63. (١٢)
- Ibid, p.54 . (١٣)
- جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، لندن ، ترجمة م. اسد و م. عباس ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٤٩٦-٤٩٩ . (١٤)
- انقسم كل من هذين الحزبين الى جناحين : احدهما ينادي بالوحدة مع العراق والثاني ضدها ويميل الى التعاون مع المحور السعودي - المصري (مقابلة مع بعض زعماء الحزبين ومنهم عبد الوهاب حومد في ١٩٧٧/٢/٥ ورشاد برمدا في ١٩٧٦/٦/٢ وعلي بوظو في ١٩٧٦/٤/٢٦). (١٥)
- كانت الغالبية في الحزب تميل الى جناح الوحدة مع العراق (مقابلة مع برمدا في ١٩٧٦/٦/٣). (١٦)
- كانت الغالبية في الحزب تميل الى جناح التعاون مع المحور السعودي - المصري (مقابلة مع نصوح بابيل في ١٩٧٧/٢/٣). (١٧)
- راجع : نضال البعث ، الجزء الثاني ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٥٨-٥٩ و ص ١٧١-١٧٢ . (١٨)
- راجع : باتريك سيل ، الصراع على سورية ، لندن ، ١٩٦٥ ، ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحه ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٨٠ وما يتبع . (١٩)
- (٢٠) المصدر نفسه .

- (٢١) مقابلة مع عبد الحليم قدور (من مؤسسي الحزب العربي الاشتراكي) ، في ١٤/٢/١٩٧٧ . ومقابلة مع جلال فاروق الريف (من البعثيين القدامى) في ٢٨/١/١٩٧٦ .
- (٢٢) حول اسباب مساهمة البرجوازية السورية في صنع الوحدة : انظر : محمد عبد المولى ، الانهيار الكبير ، الطبعة الثانية ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٤٦٠-٤٦٧ وانظر عبد الله الامام ، الناصرية دراسة بالوثائق في الفكر الناصري ، منشورات الوطن العربي ، بدون مكان او تاريخ ، ص ٣٢١ .
- (٢٣) انظر : سيل ، المصدر السابق ، ص ٣٧٢-٤٠٠ .
- (٢٤) كبيرة اذا ما قورنت ببقية الفئات البرجوازية الاخرى الموجودة في المجتمع السوري ليس الا .
- (٢٥) انظر :
- Maurice Duverger , Les Partis politiques, 5 em . ed., A. Colin, Paris 1969, p. 84-101 .
- (٢٦) المصدر نفسه .
- (٢٧) مقابلة مع جلال فاروق الشريف في ٢٨/١/١٩٧٦ .
- (٢٨) انظر جريدة البعث ، عدد ٥٦١ ، ايار ١٩٥٤ ، في : نضال البعث ، الجزء الثاني ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥٠-٢٥٣ وانظر ص ٢٧٠-٢٧٣ .
- (٢٩) قارن بين بيانات الحزب ومنشوراته في هذه الفترة وبينها في الفترة السابقة القريبة وذلك في الجزء الثاني والثالث من نضال البعث ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٣-١٩٦٤ .
- (٣٠) ان حكومة ناظم القدسي ، المؤلفة بفالبيتها الساحقة من حزب الشعب ، هي التي اصدرت في ٢١ كانون الثاني ١٩٥١ قرارات تأميم شركات الكهرباء في سورية ، واصدرت في ١٧ اذار من نفس العام قرار تأميم ادارة حصر التبغ والتنباك .
- (٣١) لقد اعتبرها : مفامرة خطيرة ستؤدي الى هروب رؤوس الاموال الاجنبية وعدم دخولها لسورية بعد اليوم (انظر القبس ، الاعساد : ٤٢٥٢ تاريخ ١٩٥١/١/٤ وعدد ٤٢٦٣ تاريخ ١٩٥١/١/١٩ وعدد ٤٢٧٢ تاريخ ١٩٥١/٢/١ وعدد ٤٢٩١ تاريخ ١٩٥١/٢/٢٧ .
- (٣٢) للاطلاع على مبادئ هذين الحزبين الرئيسية راجع كتاب بعنوان : الاحزاب السورية ، دار الرواد ، دمشق ، ١٩٥٤ ، ص ١٥٧-١٧٠ وراجع : الحزب الوطني ، الميثاق ، حلب ، بدون تاريخ .
- (٣٣) للاطلاع على مبادئ هذا التنظيم السياسية انظر دستوره في كتاب : الاحزاب السورية ، المعطيات السابقة ، ص ٢١٤-٢٢١ .
- (٣٤) مقابلة مع جهاد ضاحي (من قياديي « كتائب الفداء العربي ») ومع سامي فاحي (من ابرز قياديي « حركة القوميين العرب ») في ٢٤/٤/١٩٧٦ .

- (٣٥) مقابلة مع جهاد ضاحي في ١٩٧٦/٤/٢٤ .
- (٣٦) للاطلاع على فكر الحركة في ذلك الحين انظر : حكم دروزة وحامد الجبوري ، مع القومية العربية ، الطبعة الرابعة ، دار الفجر الجديد ، بيروت ١٩٦٠ .
- (٣٧) كتب الكثير في الفكر الناصري ، ومن الممكن اخذ فكرة واضحة عنه تماما من المصادر الآتية : عبد الله الامام ، المصدر السابق مارلين نصر ، التطور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٥١ . و :
- Paul Balta et Claudine Rulleau , *La Vision nassérienne* , Sindbad ; Paris 1982.
- (٣٨) مقابلة مع جلال فاروق الشريف في ١٩٧٦/١/٢٨ .
- (٣٩) المصدر نفسه ، وحول ابعاد ناصر للبعثيين انظر نشرة قيادة « البعث » القومية السرية في اذار ١٩٦٠ في نضال البعث ، الجزء الرابع ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٣١-١٧٩ وانظر ، عوني فرسخ ، الوحدة في التجربة ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٨٤-٢٩٩ .
- (٤٠) عبد الله امام ، المصدر السابق ص ٣٠٣ .
- (٤١) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .
- (٤٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٣ .
- (٤٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .
- (٤٤) محسن ابراهيم ، في الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي ، من منشورات « حركة القوميين العرب » ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٨-١٢٩ وص ٢١٤-٢١٧ .
- (٤٥) من خطاب عبد الناصر في عيد السد العالي في يناير ١٩٦٣ « شيء ضد العقل وضد الطبيعة ، واحنا كنا طيبين جدا ، عايزين نلم الاقطاعي اللي خدنا منه الف فدان مع الفلاح اللي وزعنا عليه خمسة افدنة » . انظر : عبد الله الامام ، المصدر السابق ص ٣٠٨-٣٠٩ .
- (٤٦) سعد التائه ، مصر بين عهدين ، دار النضال بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٩٧ .
- (٤٧) المصدر نفسه .
- (٤٨) من احدى خطب عبد الناصر ، امام ، المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .
- (٤٩) ايفور بيليايف وافيني بريماكوف ، مصر في عهد عبد الناصر ، تعريب عبد الرحمن الخميسي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٣٠ .
- (٥٠) انظر : احمد عبد الكريم ، اضاء على تجربة الوحدة ، مكتبة اطلس ، دمشق ، ١٩٦٢ ، وانظر

فرسخ ، المصدر السابق ، ص ٣٠١ ، ٣١٠ ، وص ٣٨١-٣٨٨ ، وانظر : مجموعة مؤلفين ، سورية
محظمة الاستعمار والصهيونية ، دارالاستقلال ، دمشق ، ١٩٦٢ .

(٥١) انظر دروزة وجيري، المصدر السابق ، ص ١٧٨ ومايتبع .

(٥٢) انظر ، على سبيل المثال ، بيان البعث بعد مؤتمره القومي الثالث ، بتاريخ ١٠/١٠/١٩٥٩ في جريدة
الصحافة عدد ٢٨٣ ، في : نضال البعث ، الجزء الرابع ، نفس المعطيات السابقة . ص ٩٢-١١٣-
وانظر المصدر نفسه ، ص ١٥٩ (وهو قسم من بيان القيادة القومية للبعث في آذار ١٩٦٠) .

(٥٣) انظر محمد عبد المولى ، المصدر السابق ، ص ٤٥-٧٧ .

(٥٤) المصدر نفسه ص ٤٦٢-٤٧ .

